

صورة الخليل بن أحمد الفراهيدي في لسان العرب لابن منظور

د. عاطف فضل

أستاذ علم اللغة والنحو بقسم اللغة العربية
جامعة الإسراء الخاصة عمان - الأردن

مقدمة

تبرز قيمة الخليل بن أحمد في حقول معرفية كثيرة ظهرت فيما وصل إلينا من آرائه المنقولة عنه بوساطة تلاميذه وما نُسبَ إليه من الكتب التي يظهر فيها الاضطراب بسبب الضياع، أو عدم الانتشار، أو الاختلاف في نسبتها إليه.

كان الخليلُ عبقريةً عربيةً متفردة، وذلك لكثرة الشعاب التي ارتادها في مختلف العلوم والفنون كالنحو واللغة والصرف والأصوات والموسيقى والكيمياء، وغيرها من العلوم التي تنبئ عن عبقرية عربية فذة. ثم استنبط من العروض ومن علل النحو ما لم يستنبطه أحد، وما لم يسبقه إلى مثله سابق⁽³⁾، وقد كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه.

وفي هذا السياق، جدير بنا أن نتعرض للفنون التي تطرق إليها ابن منظور في نقله عن الخليل، وهذه هي:

أولاً: العروض:

يقول حمزة الأصفهاني⁽⁴⁾: "إن دولة الإسلام لم تخرج أبدع للعلوم التي لم يكن لها عند علماء العرب أصول من الخليل، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض؛ الذي

(3) انظر: طبقات النحويين واللغويين، أبو الحسن الزبيدي، ص47.

(4) انظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة، الففطي، هامش صفحة 377/1.

لا عن حكيم أخذه، ولا على مثال تقدمه احتذاه، وإنما اخترعه مما مر له بالصفارين، من وقع مطرقة على طست".

وقصته مع ولده ليست ببعيدة عندما تجمع الناس على صراخ ولده وهو يقول: إن أبي قد جن، ويدخلون الدار . . . ليروا الخليل بن أحمد قد أخفى رأسه في فوهة بئر بوسط الدار، وهو يزعم بأصوات لا معنى لها سوى تجاوب الصدى . . . ويخرج الخليل رأسه من البئر ويستدير متعجباً لهذا الجمع الذي يملأ الدار، ويعقب على حماقة ولده بقوله⁽⁵⁾:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنتُ أجهل ما تقول عذلتك
لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتك

والذي يبدو أن ثمة إجماعاً على أن الخليل بن أحمد هو واضع علم العروض، مصطلحاً ومادة، ولم يأت أحد بمثل ما جاء به، [وربما هو من بركة دعوته عندما دعا بمكة أن يُرزق علماً لم يسبقه إليه أحد، ولا يؤخذ إلا عنه، فرجع من حجّه ففتح عليه بالعروض]⁽⁶⁾.

والشواهد التي تدل على أسبقيته في رفع بنيان هذا العلم أقوال العلماء فيه. فيقول ابن النديم: "هو أول من استخرج العروض وحصّن به أشعار العرب"⁽⁷⁾.

وذكر ابنُ خَلَّكان "بأن الخليل بن أحمد هو الذي استنبط علم العروض، وأخرجه إلى الوجود وحصر أقسامه في خمس دوائر يُستخرج منها خمسة عشر بحراً، ثم زاد الأخفش

(5) انظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي، هامش صفحة 377/1. وانظر: أخبار النحويين

البصريين السيرافي، ص55.

(6) إنباه الرواة، 377/1.

(7) انظر: الفهرست، ابن النديم، ص69.

- أخبار النحويين البصريين، السيرافي، ص54.

- نزهة الألباء، أبو البركات الأنباري، ص45.

بحراً واحداً سمّاه الخبيب" (8).

وذكر الجاحظ أن الخليل بن أحمد قد وضع جميع مصطلحات العروض ما عدا القصيد

والرجز والسجع والخطب والروي والقافية والبيت والمصراع (9).

ومصطلح العروض، من ناحية لغوية، يعني الناحية، يقال: أخذ فلان في عروضٍ ما

تعجبني، أي في طريق وناحية، وقيل: مكة والمدينة (10).

وفي الاصطلاح: هو علم يُبحث فيه عن أحوال الأوزان المعتمدة، أو هو ميزان الشعر،

به يعرف موزونه من مكسوره (11).

وقد ذكر ابن منظور للخليل قدراً كبيراً من مصطلحات العروض، ثم هو يعرض رأيه

الخليل وآراء الآخرين وتعليقاتهم عليها، منها على سبيل المثال لا الحصر:

والطرفان في المديد حذف ألف فاعلاتن ونونها؛ هذا قول الخليل، وإنما حكمه أن يقول

والقول لابن سيده، التطريف حذف ألف فاعلاتن ونونها، أو يقول: الطرفان الألف والنون

المحذوفتان من فاعلاتن (12).

ويذكر أحيانا مخالفة الخليل قول العرب، يقول ابن منظور: "وقد كان الخليل

يُحيزُ هذا ولا يجيز التوجيه، والتوجيه قد جمعه العرب وأكثر من جمعه" (13).

وقال: الكامل من شطور العروض: معروف وأصله متفاعلن ست مرات، سمي كاملاً،

لأنه استكمل على أصله في الدائرة. وقال أبو إسحاق: سمي كاملاً، لأنه كملت أجزاءه

(8) وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج1، ص342.

(9) البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص60.

(10) اللسان، مادة عرض.

(11) في العروض والقافية، يوسف بكار، ص5.

(12) اللسان مادة طرف.

(13) السابق مادة شبع.

وحركاته، وكان أكمل من الوافر⁽¹⁴⁾.

وقد يعرض ابن منظورٍ أحيانا ما ينقض قول الخليل نحو: قال أبو الحسن الأخفش: **النصب في القوافي أن تسلم القافية من الفساد، وتكون تامة البناء، فإذا جاء ذلك في الشعر المجزوء، لم يُسمَّ نصبا، وإن كانت قافيته قد تمت؛ قال: سمعنا ذلك من العرب، قال: وليس هذا مما سمى الخليل، إنما تؤخذ الأسماء من العرب⁽¹⁵⁾. ومن المخالفة أيضا قول الأخفش: زعم الخليل أن الإكفاء هو الإقواء، وسمعه من غيره من أهل العلم. قال: وسألت العرب الفصحاء عن الإكفاء، فإذا هم يجعلونه الفساد في آخر البيت والاختلاف من غير أن يحدوا في ذلك شيئا، إلا أنني رأيت بعضهم يجعله اختلاف الحروف . . إلى أن يقول هذا هو الإكفاء⁽¹⁶⁾.**

ويعرض ابن منظور أحيانا قول الخليل وقول غيره، دون مناقشة أو ميل إلى أيهما، نحو: "والإجارة، في قول الخليل: أن تكون القافية طاء والأخرى دالا ونحو ذلك، وغيره يسميه الإكفاء". ولا أدلّ على تلك المناقشات والمماحكات بين الخليل وغيره من المثال الذي ساقه ابن منظور حول "المنهوك" قال: "والمنهوك وهو الذي قد ذهب منه أربعة أجزاء وبقي جزآن نحو:

يا ليتني فيها جذع أخب فيها وأضع

وقد اختلّف فيه؛ فزعم قوم أنه ليس بشعر وأن مجازه مجاز السجع، وهو عند الخليل شعر صحيح، ولو جاء منه شيء على جزء لاحتمل الرجز ذلك لحسن بنائه. وفي التهذيب: وزعم الخليل أن الرجز ليس بشعر وإنما هو أنصاف أبيات وأثلاث، ودليل

(14) السابق مادة كمل.

(15) السابق مادة نصب.

(16) السابق مادة كفاء.

الخليل في ذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك من لم تزود بالأخبار

قال الخليل: لو كان نصف البيت شعرا ما جرى على لسان النبي صلى الله عليه وسلم:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا

وجاء بالنصف الثاني على غير تأليف الشعر؛ لأن نصف البيت لا يقال له شعر، ولا

بيت، ولو جاز أن يقال لنصف البيت شعر لقليل لجزء منه شعر، وقد جرى على لسان

النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب"⁽¹⁷⁾ قال بعضهم:

"إنما هو لا كذب بفتح الباء على الوصل؛ قال الخليل: فلو كان شعرا لم يجر على لسان

النبي صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له)⁽¹⁸⁾؛ أي

وما يتسهل له؛ قال الأخفش: قول الخليل: إن هذه الأشياء شعر، قال: وأنا أقول إنها

ليست بشعر، وذكر أنه هو ألزم الخليل ما ذكرنا وأن الخليل اعتقده. قال الأزهري: قول

الخليل الذي كان بنى عليه أن الرجز شعر ومعنى قول الله عز وجل: (وما علمناه الشعر

وما ينبغي له)⁽¹⁹⁾، أي لم نعلمه الشعر فيقول ويتدرب فيه حتى ينشئ منه كتبا، وليس

في إنشاده صلى الله عليه وسلم، البيت والبيتين لغيره ما يبطل هذا؛ لأن المعنى فيه: إنا

لم نجعله شاعرا؛ قال الخليل: الرجز المشطور والمنهوك ليسا من الشعر، قال: والمنهوك

كقوله: أنا النبي لا كذب. والمشطور: الأنصاف المسجعة. وفي حديث الوليد بن المغيرة

حين قالت قريش عن النبي صلى الله عليه وسلم: إنه شاعر، فقال: لقد عرفت الشعر

(17) صحيح البخاري، 3/1051/ صحيح مسلم 3/1400.

(18) سورة يس آية 69.

(19) المصدر نفسه.

ورجزه وهزجه وقريضه فما هو به⁽²⁰⁾. والرجز: بحر من بحور الشعر معروف ونوع من أنواعه يكون كل مصراع منه مفردا، وتسمى قصائده أراجيز، واحدها أرجوزة، وهي كهيئة السجع إلا أنه في وزن الشعر، ويسمى قائله راجزا كما يسمى قائل بحور الشعر شاعرا. قال إبراهيم الحربي: ولم يبلغني أنه جرى على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، من ضروب الرجز إلا ضربان: المنهوك والمشطور، ولم يعدّهما الخليل شعرا، فالمنهوك كقوله في رواية البراء إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم، على بغلة بيضاء يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب. والمشطور كقوله في رواية جندب: إنه صلى الله عليه وسلم، دميت إصبعة فقال: "هل أنت إلا إصبع دميت⁽²¹⁾؟ وفي سبيل الله ما لقيت" ويروى أن العجاج أنشد أبا هريرة:

ساقا بخنداة وكعبا أدما⁽²²⁾

وبالجملة فإن مصطلحات العروض التي وردت في لسان العرب كثيرة هي: النصب، والإكفاء، والإقواء والابتداء، والخروج، والمقعد، والسناد، والتصدير، والدائرة، والمجاورة، والإجازة⁽²³⁾، والمنهوك، والعجز، والتأسيس، والوقف، والإجادة، والمقيد، والقافية، والردف والروي، والبأو في القوافي، والكف والطرفان، والإشباع، والفصل، وغيرها.

وفي هذا كله عرض لآراء الخليل وتعريف بكل مصطلح ومناقشات الدارسين لهذه الآراء بين مؤيد ومخالف. وبهذا تصبح صورة الخليل عروضيا في لسان ابن منظور واضحة جلية، فهو يعتمد عليه في مواقع كثيرة يعرض فيها آراء الخليل في المصطلحات

⁽²⁰⁾ انظر: المستدرک علی الصحیحین، للحاکم، 550/2.

⁽²¹⁾ انظر: صحیح البخاری 1031/3 / صحیح مسلم 1421/3.

⁽²²⁾ اللسان مادة رجز.

⁽²³⁾ السابق مادة جور أو في موضع آخر سماها الإجازة، انظر مادة جور.

العروضية، ومناقشة هذه الآراء بين موافق ومعارض.

ثانياً: الصرف

هو العلم الذي يتناول دراسة أبنية الكلمة وما يكون لحروفها من أصالة، أو زيادة، أو صحة أو إعلال، أو إبدال أو حذف، أو قلب، أو إدغام، أو إمالة، وما يعرض لآخرها مما ليس بإعراب ولا بناء كالوقف والتقاء الساكنين.

ويختص علم الصرف بدراسة الاسم المتمكن - أي المعرب - الذي يمكن تصريفه واشتقاقه، والفعل المتصرف المشتق وهو ما اختلفت صورته لاختلاف زمانه. والصرف من أهم علوم العربية وأشرفها "والذي يبين شرفه احتياج جميع المشتغلين باللغة العربية، من نحوي ولغوي، إليه أيما حاجة؛ لأنه ميزان العربية . . . ومما يبيّن شرفه أيضاً أنه لا يوصل إلى معرفة الاشتقاق إلا به، ألا ترى أنهم لم يصفوا الله تعالى بـ "سخي"، لأن أصله من الأرض السّخاوية وهي الرخوة، بل وصفوه بـ "جواد"، لأنه أوسع في معنى العطاء" (24).

وتظهر فائدته في صون اللسان والقلم عن الوقوع في الخطأ، وهناك من عدّ الصرف من أعلى المراتب؛ لأنه يغني الدارس عن البحث في كتب اللغة، بتطبيق القواعد واستعمال القياس فيما يريد صوغه أو ضبطه، كما يحول بينه وبين اللحن في النطق بالكلام. ولهذه الأهمية، فقد رأى الصرفيون أن يُقدّم علمُ الصرف على غيره من علوم العربية، لأنّ "معرفة نوات الكلم في أنفسها من غير تركيب تكون مقدمة على معرفة أحوال الكلم التي تكون له بعد التركيب" (25).

(24) المتع في التصريف، ابن عصفور، ص 27-28.

(25) شرح الشافية، ابن الحاجب، 6/1.

هذا وقد أحصى ابن منظور قدرا كبيرا من مسائل الصرف للخليل بن أحمد الفراهيدي، هذه المسائل تكاد تكون شاملة لأبواب الصرف العربي من ميزان صرفي، وتصغير، ونسب، وإعلال وإبدال وإدغام وإمالة ومشتقات وغيرها. وقد جاءت هذه المسائل والآراء مُعلّلة؛ بمعنى أنه لم يكتفِ بعرض الرأي دون تعليقه وتفسيره استحساناً واستقباحاً. وخير مثال على ذلك ما ذكره ابن منظور عن الجوهري من قول الخليل عن كلمة أشياء، وتلك المناقشات التي حصلت حول هذه المسألة. يقول ابن منظور: وأشياء: لفعاء عند الخليل وسيبويه، وعند أبي الحسن الأخفش أفعلاء. وفي التنزيل العزيز: (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم)⁽²⁶⁾. قال أبو منصور: لم يختلف النحويون في أن أشياء جمع شيء، وأنها غير مجرأة - أي غير مصروفة - . قال: واختلفوا في العلة فكرهت أن أحكي مقالة كل واحد منهم، واقتصرت على ما قاله أبو إسحق الزجاج في كتابه⁽²⁷⁾ لأنه جمع أقاويلهم على اختلافها، واحتج لأصوبها عنده، وعزاه إلى الخليل، فقال: قوله: "لا تسألوا عن أشياء"، أشياء في موضع الخفض، إلا أنها فُتحت لأنها لا تنصرف.

قال: وقال الكسائي: أشبه آخرها آخر حمراء، وكثر استعمالها، فلم تنصرف. قال الزجاج: وقد أجمع البصريون وأكثر الكوفيين على أن قول الكسائي خطأ في هذا، وألزموه أن لا يصرف أبناء وأسماء. وقال الفراء والأخفش: أصل أشياء أفعلاء كما تقول هَيْن وأهوناء، إلا أنه كان في الأصل أشيئاء، على وزن أشيعاع، فاجتمعت همزتان بينهما ألف فحذفت الهمزة الأولى. قال أبو إسحق: وهذا القول أيضا غلط لأن شيئا فعل، وفعل لا يجمع

(26) المائدة، الآية 101.

(27) معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج، 212/2.

أفعلاء، فأما هَيْنُ فأصله هَيْنٌ فجمع على أفعلاء، كما يجمع فعيل على أفعلاء، مثل نصيب وأنصباء. قال وقال الخليل: أشياء اسم للجمع كان أصله فعلاء شيئاء، فاستنقل الهمزتان، فقلبوا الهمزة الأولى إلى أول الكلمة، فجعلت لفعاء، كما قلبوا أنوقا فقالوا أينقا، وكما قلبوا قؤوسا قسيا.

قال: وتصديق قول الخليل جمعهم أشياء أشاوى وأشايا، قال: وقول الخليل هو مذهب سيبويه والمازني وجميع البصريين، إلا الزِّياديّ منهم، فإنه كان يميل إلى قول الأخفش. وذكر أن المازني ناظر الأخفش في هذا، فقطع المازني الأخفش في هذا، وذلك أنه سأله كيف تصغر أشياء، فقال له أقول: أشياء؛ فاعلم، ولو كانت أفعلاء لردت في التصغير إلى واحدتها فقيل: شُيئات. وأجمع البصريون أن تصغير أصدقاء، إن كانت للمؤنث: صُدِّيقات، وإن كان للمذكر: صُدِّيقون. قال أبو منصور: وأما الليث، فإنه حكى عن الخليل غير ما حكى عنه الثقات، وخطَّ فيما حكى وطَوَّل تطويلا دل على حيرته، قال: فلذلك تركته، فلم أحكه بعينه، وتصغير الشيء: شُييء وشِبيء بكسر الشين وضمها. قال: ولا تقل شويء⁽²⁸⁾.

يلاحظ من هذه المناقشة الطويلة حول هذه الكلمة دقة ابن منظور أولاً، ثم عرض المسألة معللة ثانياً.

وأحيانا يرد الرأي الذي يرتضيه إلى لغات العرب، ويمثل ابن منظور على ذلك بالخلاف الحاصل حول حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قالوا يا رسول الله، كيف تُعرضُ صلاتنا عليك وقد أرمت؟"⁽²⁹⁾ فبعد أن يستعرض الآراء حول كلمة "أرمت" يقول: فإن

(28) اللسان مادة شياً. وانظر: الإنصاف في مسائل الخلاف، مسألة 118.

(29) انظر: سنن أبي داود، 342/1.

صحت الرواية ولم تكن محرفة فلا يمكن تخريجه إلا على لغة بعض العرب، فإن الخليل زعم أن ناسا من بكر بن وائل يقولون رَدَّتْ، وكذلك مع جماعة المؤنث يقولون: رُدَّنَ ومُرَّنَ يريدون: رددت ورددت، وارددن وامررن، قال كأنهم قدروا الإدغام قبل دخول التاء والنون، فيكون الحديث أَرَمَتَ (30).

وكذلك في النسب إلى حية بن بهدلة: قبيلة، النسب إليها حيوي؛ حكاه سيبويه عن الخليل عن العرب (31).

وفي معرض حديثه عن "كأين؛ يقول ابن منظور: ثم إن العرب تصرفت في هذه الكلمة لكثرة استعمالها إياها، فقدمت الياء المشددة وأخرت الهمزة كما فعلت ذلك في عدة مواضع نحو قسيّ وأشياء في قول الخليل" (32).

ثالثاً: النحو:

أخذ الخليل النحو عن أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر. وشكّل بعد ذلك مذهباً خاصاً به، تتلمذ على يديه نفرٌ منهم سيبويه، والنضر بن شميل ومؤرج السدوسي وغيرهم (33). ومع هذا فهو لم يؤلف كتاباً في النحو، ويعد كتاب سيبويه في أصوله ومسائله للخليل. وقد قيل ليونس بن حبيب: "إن سيبويه ألف كتاباً من ألف ورقة في علم الخليل" فقال: "وقد سمع سيبويه من الخليل هذا كله؟ جيئوني بكتابه. فلما نظر فيه قال: "يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فيما حكاه، كما صدق فيما حكى

(30) اللسان مادة رعم.

(31) السابق مادة حيا.

(32) اللسان مادة أيا.

(33) نزهة الألباء، ابن الأتباري، ص 25.

عني» (34).

وقد ذكر ابن منظور للخليل قدراً هائلاً من الآراء والمسائل النحوية المختلفة التي تتوزع على أبواب النحو، ولكن ابن منظور في عرض هذه المسائل النحوية المختلفة يكون ناقلاً لآراء النحويين من بصريين وكوفيين دون التعليق على أقوالهم ودون ترجيح رأي على رأي. وربما يعرض في بداية المسألة شرحاً لها ثم يستند إلى رأي النحويين، لكن هذا الرأي لا جديد فيه، فهو يعود إلى النحويين. ويفهم من خلال عرضه هذا أنه بصري المذهب. ومن الأمثلة النحوية التي جاءت في لسان العرب - وهي كثيرة - : حديثه عن (قبل وبعد) عندما تكونان منقطعتين عن الإضافة، قال: "وقال الخليل قبلُ وبعدُ رفعا بلا تنوين لأنهما غائيان، وهما مثل قولك: ما رأيت مثله قطُّ، فإذا أضفته إلى شيء نصبت إذا وقع موقع الصفة كقولك جاءنا قبلَ عبد الله، وهو قبلَ زيد قادم، فإذا أوقعت عليه من صار في حدِّ الأسماء كقولك من قبل زيد، فصارت "من" صفة، وخفض قبلُ لأن من من حروف الخفض، وإنما صار قبل منقاداً لـ (من) وتحول من وصفيته إلى الاسمية، لأنه لا يجتمع صفتان، وغلبه من لأن من صار في صدر الكلام فغلب (35). وفي الحديث: "نسألك من خير هذا اليوم وخير ما قبله وخير ما بعده ونعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما قبله وشر ما بعده" (36)؛ سؤاله خير زمان مضى هو قبول الحسنه التي قدمها فيه، والاستعاذه منه هو طلب العفو عن ذنب قارفه فيه، والوقت وإن مضى فتبعته باقية.

وسئل الخليل عن نصب (مرحبا) فقال: فيه كمين الفعل؟ أراد: به انزل أو أقم، فنصب

(34) أخبار النحويين البصريين، ص 31.

(35) اللسان مادة قبل. وانظر: الكتاب، 4/333.

(36) سنن أبي داود، 2/743.

بفعل مضمر، فلما عرف معناه المراد به، أميت الفعل⁽³⁷⁾، وكذلك تناول بساطة الحروف وتركيبها فقد ذكر أن (لن): حرف ناصب للأفعال، وهو نفي لقولك سيفعل، وأصلها عند الخليل لا أن، فكثرت استعمالها فحذفت الهمزة تخفيفاً، فالتقت ألف لا ونون أن، وهما ساكنان، فحذفت الألف من لا لسكونها وسكون النون بعدها، فخلطت اللام بالنون وصار لهما بالامتزاج والتركيب الذي وقع فيهما حكم آخر⁽³⁸⁾.

وكذلك زعم الخليل أن (مهما) هي ما ضمت إليها ما لغوا، وأبدلوا الألف هاء⁽³⁹⁾، وفي كل المسائل النحوية يستطرد ابن منظور في نقولاته لمناقشات النحويين لهذه المسائل، ولم يكتف بعرض رأي الخليل، وإنما عرض جل الآراء بمناقشات ضافية لاختلافات النحويين مثل: قال أبو إسحق: وقال الخليل وسيبويه وجميع النحويين الموثوق بعلمهم: اللهم بمعنى يا الله، وإن الميم المشددة عوض من يا؛ لأنهم لم يجدوا يا مع هذه الميم في كلمة واحدة، ووجدوا اسم الله مستعملاً بيا إذا لم يذكروا الميم في آخر الكلمة، فعلموا أن الميم في آخر الكلمة بمنزلة يا في أولها، والضمة التي هي في الهاء هي ضمة الاسم المنادى المفرد، والميم مفتوحة لسكونها وسكون الميم قبلها؛ وقال الفراء: ومن العرب من يقول إذا طرح الميم يا الله اغفر لي، بهمزة، ومنهم من يقول يا الله بغير همز، فمن حذف الهمزة فهو على السبيل، لأنها ألف ولا مثل لام الحرث من الأسماء وأشباهه، ومن همزها توهم الهمزة من الحرف إذ كانت لا تسقط منه الهمزة؛ وأنشد:

مبارك هو من سمّاه على اسمك، اللهم يا الله

⁽³⁷⁾ اللسان مادة رجب.

⁽³⁸⁾ السابق مادة لن، وانظر الكتاب 407/1.

⁽³⁹⁾ السابق مادة ما. وانظر: الكتاب، 60-59/3.

قال: وكثرت اللهم في الكلام حتى خفت ميمها بعض اللغات(40).

رابعاً: الأصوات

تعد اللغة نسقاً من الأصوات المتتابعة بانتظام، وعلم الأصوات فرع من علم اللغة ومهمته دراسة الكلام، والكلام هو الوسيلة اللغوية الوحيدة المستخدمة للاتصال بين أفراد الجنس البشري. ولا يتحقق الكلام إلا بوجود مرسل (متكلم) ومتلق (سامع) ورسالة، وهو ما يريد المتكلم أن يوصله إلى السامع، وأخيراً الوسط (أثير هوائي)، وبذلك فإن الأصوات اللغوية تشكل مادة للوصف في إطار منهج علمي صحيح يتناول أصوات اللغة بالوصف والتحليل. من أجل ذلك، يميز علماء الأصوات في المنهج الصوتي بين ثلاثة فروع رئيسة هي:

علم الأصوات النطفي أو الفسيولوجي وهو العلم الذي يهتم بدراسة الأصوات المنطوقة والتفريق بينها من حيث المخرج (لثوية، شفوية وغيرها)، والكيفية التي تنطق بها (انفجارية، احتكاكية) وصفاتها (مجهورة، مهموسة)، ونوعها (فموية، أنفية) إلى غير ذلك. ثم يتناول هذا الفرع الطريقة التي بها تكوّن، والأعضاء المستخدمة، ووظيفة كل صوت منطوق.

علم الأصوات السمعي، وهو العلم الذي يبحث في إدراك الأصوات اللغوية، ويقوم هذا على جانبيين هما: عضوي ونفسي، ويركز جهوده على الذبذبات التي تستقبلها أذن السامع، والأثر النفسي لهذه الذبذبات في المتلقي.

علم الأصوات الأكوستيكي أو الفيزيائي، وهو العلم الذي يبحث في الخصائص الفيزيائية للموجات الصوتية التي يحدثها نشاط أعضاء النطق وتتنقل عبر الهواء بين المتكلم

(40) اللسان مادة أله. ولمزيد من التفصيل انظر المواد: أيا/ إلا/ وي/ أبي/ وا/ ها/ إذ/ إذا/ إنن/ متى.

والسامع (41).

فقد صنف القدماء الأصوات إلى صامتة وصائتة وحددوا دلالة كل نوع، وقسموا الأصوات إلى: مهموسة ومجهورة وفقاً لتقارب الوترين الصوتيين أو تباعدهما. ووجدت ملاحظات عند سيبويه تقوم على تقسيم الأصوات إلى ثلاث طبقات. كما وضعت مصنفات صوتية على درجة عالية من الدقة والإحكام منها كتاب العين للخليل، وكتاب سيبويه، وسر صناعة الإعراب لابن جني ورسالة في أسباب حدوث الحروف للفارابي وغيرها.

ويؤكد مؤرخو علم اللغة أهمية الدراسات الصوتية عند العرب. يقول كانتينو: "لقد كان قدماء النحاة العرب أول علماء الأصوات في لغتهم" (42).

إن هذا الاعتراف بأهمية البحث الصوتي العربي، وتوكيد علميته، وتأثيره في البحث الصوتي الغربي يعني أصالة المنهج الذي سار عليه علماء العربية، ذلك المنهج الذي يقترب كثيراً من المناهج العلمية الحديثة على الرغم من افتقارهم إلى الأجهزة الصوتية الحديثة التي يستعين بها الباحث في دقة نتائجه.

ويعد عمل الخليل بن أحمد الفراهيدي في درس الصوتي المرحلة الأولى، وهو الذي فتح بابه، ووقف على تفاصيله، وذلك لأهميته، وكان على وعي تام بأن دراسة الأصوات مقدمة لا بدّ منها لدراسة اللغة (43).

هذا ولم تكن الدراسة الصوتية في كتاب ابن منظور كالنحو أو الصرف أو اللغة، بل

(41) انظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، ص 87 وما بعدها، علم اللغة العام، توفيق شاهين، ص 100 وما بعدها. علم اللغة، علي عبد الواحد وافي، ص 260 وما بعدها.

(42) دروس في علم أصوات العربية، جان كانتينو، ترجمة صالح قرماوي، ص 118. وانظر: محاضرات في اللسانيات، فوزي الشايب ص 41 وما بعدها.

(43) اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص 50.

جاءت متواضعة، منها حديثه عن تأليف كتاب العين والمنهج الذي سار عليه الخليل فيه. يقول ابن منظور نقلاً عن المظفر: "لما أراد الخليل بن أحمد الابتداء في كتاب العين أعمل فكره فيه فلم يمكنه أن يبتدئ من أول ا ب ت ث؛ لأن الألف حرف معتل، فلما فاتته أول الحروف كره أن يجعل الثاني أولاً، وهو الباء، إلا بحجة، وبعد استقصاء تدبر ونظر إلى الحروف كلها وذاقها فوجد مخرج الكلام كله من الحلق، فصير أولها بالابتداء به أدخلها في الحلق، وكان إذا أراد أن يذوق الحرف فتح فاه بألف ثم أظهر الحرف نحو أب أت أح أع، فوجد العين أقصاها في الحلق وأدخلها، فجعل أول الكتاب العين، ثم ما قرب مخرجه منها بعد العين الأرفع فالأرفع، حتى أتى على آخر الحروف، وأقصى الحروف كلها العين، وأرفع منها الحاء، ولولا بحة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرج الحاء من العين، ثم الهاء، ولولا هتة في الهاء، وقال مرة همة في الهاء، لأشبهت الحاء لقرب مخرج الهاء من الحاء، فهذه الثلاثة في حيز واحد، فالعين والحاء والهاء والحاء والغين حلقيه، فاعلم ذلك. قال الأزهري: العين والقاف لا تدخلان على بناء إلا حسنتاه لأنهما أطلق الحروف، أما العين فأنصع الحروف جرساً وألذها سماعاً، وأما القاف فأمتن الحروف وأصحها جرساً، فإذا كانتا أو إحداهما في بناء حسن لصاغاتهما. قال الخليل: العين والحاء لا يأتلفان في كلمة واحدة أصلية الحروف لقرب مخرجيهما إلا أن يؤلف فعل من جمع بين كلمتين مثل حي على فيقال منه حيعل، والله أعلم⁽⁴⁴⁾.

وفي وصفه للهمزة يقول الخليل: الهمزة صوت مهتوت في أقصى الحلق يصير همزة، فإذا رُقِّه عن الهمز، كان نفساً يحول إلى مخرج الهاء، فلذلك استخفت العرب إدخال

(44) اللسان مادة عين.

الهاء على الألف المقطوعة، نحو أراق وهراق، وأيهات وهيهات، وأشباه ذلك كثير (45).

وقال الخليل: حروف العربية تسعة وعشرون حرفاً، منها خمسة وعشرون صحاح لها أحياء ومدارج، فالحاء والغين في حيز واحد، والحاء من الحروف الحلقية (46).

وروي عن الليث أن الخليل قال: الظاء حرف عربي خص به لسان العرب لا يشركهم فيه أحد من سائر الأمم، والظاء من الحروف المجهورة، والظاء والذال والطاء في حيز واحد، وهي الحروف اللثوية، لأن مبدأها من اللثة (47).

والخليل يسمي الميم مطبقة؛ لأنك إذا تكلمت بها أطبقت، قال: والميم من الحروف الصحاح الستة المذلقة هي التي في حيزين: حيز الظاء، والآخر حيز اللام وجعلها في التأليف الحرف الثالث للفاء والباء، وهي آخر الحروف من الحيز الأول، قال: وهذا الحيز شفوي (48). وقال أيضاً السين: حرف هجاء من حروف المعجم وهو حرف مهموس، يذكر ويؤنث، هذه سين وهذا السين، فمن أنث فعلى توهم الكلمة، ومن ذكر فعلى توهم الحرف (49). وذكر عن الخليل قوله: من العرب من يُجْري العين والحاء مجرى القاف والكاف في إخفاء النون معهما (50). وفي كل هذا جاءت نقولات ابن منظور دقيقة وصفية لما قاله الخليل وما قاله غيره من الدارسين.

خامساً: اللغة

(45) اللسان مادة هنتت.

(46) السابق مادة خاء.

(47) السابق مادة ظاء.

(48) السابق مادة موم.

(49) السابق مادة سين.

(50) السابق مادة نون.

يمتلك الخليل بن أحمد الفراهيدي ثقافة لغوية واسعة، فقد أخذ اللغة والشعر من أستاذه عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء وغيرهما. ولم يكتف بذلك، بل شدّ الرحال إلى بوادي نجد وتهامة والحجاز ليأخذ اللغة من أفواه الرجال⁽⁵¹⁾. وذكر أيضا عنه أنه كان يحفظ نصف اللغة⁽⁵²⁾. وكذلك هو أول من صنف في جمع اللغة⁽⁵³⁾، وألف في ذلك كتابه العين.

هذا وتشكل مادة اللغة في لسان ابن منظور النصيب الأوفر من آراء الخليل بن أحمد الفراهيدي.

ومن القضايا اللغوية التي ذكرت للخليل بن أحمد في لسان العرب ما يلي:
قضايا خالف فيها غيره منها: الهميغ يعني الذابح، وحكاه الليث الهميع، بالعين المهملة، وكان الخليل يقوله بعين غير معجمة؛ وخالفه الناس⁽⁵⁴⁾.

ومنه: قال أبو أسلم ومر بناقة فقال: إنها والله لأسحوف الأحاليل، أي واسعتها، فقال الخليل: هذا غريب؛ والسحوف من الغنم: الرقيقة صوف البطن⁽⁵⁵⁾.

ذكر لغات العرب المختلفة في القضية الواحدة منها: قال الخليل: كل صاد تجيء قبل القاف، وكل سين تجيء قبل القاف، فللعرب فيه لغتان: منهم من يجعلها سينا، ومنهم من يجعلها صادًا لا يبالون أمتصلة كانت بالقاف أو منفصلة بعد أن يكونا في كلمة واحدة إلا أن الصاد في بعض أحسن والسين في بعض أحسن. يقال: ما أدري أين سقع أي أين ذهب، وسقع الديك: مثل صقع. وخطيب مسقع: مثل مصقع. والسقع: ما تحت الركبة

(51) نزهة الألباء، ص 69.

(52) أخبار النحويين البصريين، ص 41.

(53) المزهر، السيوطي، ص 76.

(54) اللسان مادة همع، وانظر مادة عشش وجسس.

(55) السابق مادة سحف.

وحولها من نواحيها، وصقعا نواحيها، والجمع أسقاع⁽⁵⁶⁾.

استخدام القياس في مسائل اللغة، ومنه: حكى سيبويه في جمع أهل: أهلون، وسئل

الخليل: لم سكنوا الهاء ولم يحركوها كما حركوا أرضين؟ فقال: لأن الأهل مذكر، قيل:

فلم قالوا أهلات؟ قال: شبهوها بأرضات، وأنشد بيت المخبل السعدي،

وهم أهلات حول قيس بن عاصم إذا أدلجوا بالليل يدعون كوثرا

قال: ومن العرب من يقول أهلات على القياس. والأهالي: جمع الجمع وجاءت الياء التي

في أهالي من الياء التي في الأهلين. وفي الحديث: "أهل القرآن هم أهل الله وخاصته"

أي حفظة القرآن العاملون به هم أولياء الله والمختصون به اختصاص أهل الإنسان

به⁽⁵⁷⁾.

تفسير كلمة معينة، ثم يستطرد في تفسير كلمات لها سبب بالكلمة الأولى التي فسرها

نحو: وروى ابن شميل عن الخليل بن أحمد أنه قال: المحال الكلام لغير شيء،

والمستقيم كلام لشيء، والغلط كلام لشيء لم تُردّه، واللغو كلام لشيء ليس من شأنك،

والكذب كلام لشيء تُعزُّ به. وأحال الرجل: أتى بالمحال وتكلم به⁽⁵⁸⁾.

أن يذكر ما عرف في الدراسات اللغوية بالنحت. يقول الخليل: حيعل الرجل إذا قال حي

على الصلاة، قال: والعرب تفعل هذا إذا كثر استعمالهم للكلمتين ضموا بعض حروف

إحداهما إلى بعض حروف الأخرى، منه قولهم: لا تبرقل علينا؛ والبرقلة: كلام لا يتبعه

فعل، مأخوذ من البرق الذي لا مطر معه. قال أبو العباس: الحولقة والبسطة والسبحلة

⁽⁵⁶⁾ اللسان مادة سقع.

⁽⁵⁷⁾ السابق مادة أهل. وانظر: الكتاب 600/3. وقد ورد الحديث في سنن ابن ماجه 78/1 ومسند

أحمد 127/3.

⁽⁵⁸⁾ السابق مادة حول.

والهيلة، قال: هذه الأربعة أحرف جاءت هكذا، قيل له: فالحمدلة؟ قال: ولا أنكره (59).

ما تفرد به الخليل من تفسير لبعض الكلمات نحو: والرّتُ: الرئيس من الرجال في الشرف والعطاء، وجمعه رتوت؛ وهؤلاء رتوت البلد. والرت شيء يشبه الخنزير البري، وجمعه رتوت؛ وقيل: هي الخنازير الذكور؛ قال ابن دريد: وزعموا أنه لم يجيء بها أحد غير الخليل (60).

استنكار الخليل بعض الكلمات، نحو: قال الأزهري: قال الخليل بن أحمد سمعنا كلمة شنعاء لا تجوز في التأليف (العهخ) قال: وسألنا الثقات من علمائهم فأنكروا أن يكون هذا الاسم من كلام العرب (61). ويقول الخليل: سألت أبا الدقيش عنه قلت: نشوار أو مشوار؟ فقال: نشوار، وزعم أنه فارسي (62).

ومن دقة الخليل أيضا يقول: ليس في كلام العرب شين بعد لام، ولكن كلها قبل اللام (63). ويقول: الصاد مع الضاد معقوم لم يدخلها معا في كلمة واحدة من كلام العرب إلا في كلمة وضعت مثلا لبعض حساب الجمل وهي صعفض (64).

(59) اللسان مادة هلال.

(60) السابق مادة رتت.

(61) السابق مادة عهخ.

(62) السابق مادة شور.

(63) السابق مادة علش ولشش.

(64) السابق الصاد المهملة.

الخاتمة

فقد بلغت نقولات ابن منظور عن الخليل بن أحمد ما يقرب من مائتين وخمسة وستين موضعاً. وقد شكلت هذه النقولات صورة الخليل بن أحمد الفراهيدي في لسان العرب، وهي صورة تقوم على رؤية لسانية شاملة لكل مستويات اللغة من نحو وصرف وعروض وأصوات.

وهذه النقولات جاءت بطرائق مختلفة كما يلي:

يعرض أولاً رأي الخليل بن أحمد ثم آراء اللغويين وتعليقاتهم عليها.

يعرض آراء اللغويين ثم رأي الخليل بن أحمد.

يعرض أحياناً ما ينقض قول الخليل.

يعرض رأي الخليل بن أحمد وآراء اللغويين، ثم يرد رأي الخليل إلى لغات العرب.

ذكر لغات العرب المختلفة في القضية الواحدة.

يستطرد ابن منظور في تفسير كلمات لها سبب بالكلمة الأولى التي فسرها.

يعرض قضايا خالف الخليل فيها غيره.

يعرض ما تفرد به الخليل من تفسير بعض الكلمات.

يعرض استنكار الخليل لبعض الكلمات.

يعرض ابن منظور قضايا اللغة من نحت واشتقاق وقياس وغيرها كما جاءت على لسان

الخليل.

وفي هذه كلها كان ابن منظور ناقلاً للآراء دون التعليق عليها، ودون ترجيح رأي على

آخر، مع ميله أحياناً إلى رأي الخليل، ولكن دون التصريح بذلك، بل يشتم من كلامه أنه

مع الخليل في هذه المسألة أو تلك.

مراجع البحث ومصادره

- القرآن الكريم.
- أخبار النحويين البصريين، أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، تحقيق محمد إبراهيم البناء، دار الاعتصام، مصر، ط1، 1985م.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 1986م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف، أبو البركات الأنباري، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث، ط4، 1961م.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط2، 1979م.
- البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، 1948م.
- دروس في علم الأصوات العربية، جان كانتينو، ترجمة صالح قرماوي.
- سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، دار الفكر، بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، دار الفكر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.
- شرح شافيه، ابن الحاجب، رضي الدين الاسترأبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982م.

- صحيح البخاري، الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، ط3، 1987.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
- طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط2، 1973م.
- علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت.
- علم اللغة، علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للنشر، ط7، 1972.
- الفهرست، ابن النديم، دار المعرفة، بيروت.
- في العروض والقافية، د. يوسف بكار، دار الفكر للنشر، 1984.
- الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب، ط3، 1983م.
- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت، د.ت.
- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، الهيئة المصرية العامة، ط3، 1985م.
- محاضرات في اللسانيات، فوزي الشايب، منشورات وزارة الثقافة الأردنية، ط1، 1999.
- المزهري في علوم العربية، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أحمد جاد

المولى وعلي البجاوي وحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، د.ت.

- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله النيسابوري، تحقيق عبد القادر

عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990.

- مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مؤسسة قرطبة،

القاهرة.

- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج، شرح وتحقيق عبد الجليل شلبي،

عالم الكتب، ط1، 1988.

- معجم فهارس لسان العرب، صنعه خليل عمارة وأحمد أبو الهيجا، مؤسسة

الرسالة، ط1، 1987م.

- الممتع في التصريف، ابن عصفور الإشبيلي، تحقيق فخر الدين قباوة، دار

المعرفة، بيروت، ط1، 1987م.

- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري، تحقيق إبراهيم

السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، ط3، 1985م.

- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.